المحاضرة التاسعة : التاريخ الشفاهي : الالفة , والاصغاء , والقص بوصفها تقنيات بحثية

بناء الالفة ومعالجة الاختلاف:

في اثناء جمع البيانات , يعتمد التاريخ الشفاهي على تسجيل التواصل اللفظي بين الباحث والفرد المبحوث . ويمكننا تفصيل هذا الكلام بدرجة اكبر فنقول ان التاريخ الشفاهي يعتمد على وسيلتين تعززان تدفق البيانات وهما : وسيلة الكلام ووسيلة الاصغاء . وقبل ان تروى الحكاية يستطيع القائم بالمقابلة والمبحوث ان يبدا فهم طريقة الاصغاء وطريقة الكلام في سياق انتاج قصة من قصص الحياة . ومن المهم ان يخلق الباحث والمبحوث نوعا من الالفة بينما في بادىء الامر قبل الجلسة الاولى للمقابلة المسجلة ( في حالة امكن التسجيل ) وهي الالفة التي يتوجب عليهما العناية بها على امتداد عملية المقابلة . ومع ان الالفة تكون جدلية ( اي تتم بين طرفين ) دائما , فان المسئولية الاساسية في ذلك تقع على عاتق الباحث صاحب المبادرة في عملية البحث . وقد يعني هذا القيام بشيء من المناقشات التمهيدية حتى يشعر كلا هذين الطرفين بالارتياح لبعضهما ويبدا في فهم كل منهما " لاسلوب الاخر في الكلام " .

قبل اللقاء الاول , يمكن للباحثين الذين يجرون المقابلة ان ينحوا جانبا الاطار الزمني المخصص للبحث من اجل توفير الوقت الذي يرجو المبحوثون يحكون حكاياتهم ان يتاح لهم . ذلك ان اخذ الوقت الكافي للتعرف على شخص اخر يعنى ما هو اكثر من التمهيد للمقابلة , اذ يترتب عليه اللقاء الذي يستغرق جلسة ممتدة او اكثر من جلسة . ونظرا لان الباحثين يكونون متوائمين مع الممارسة الجيدة للتاريخ الشفاهي , فانهم ينتهزون الفرصة للحصول على التعقيبات والانطباعات التي يبديها المبحوثون الرواة تجاه هذا المشروع , بما فيها من ذكر لاسماء رواة محتملين , ولاشخاص اخرين يشكلون مصدرا للبيانات , ولمراجع تحتوى على صور ضوئية , وابداعات فنية , ومواد مكتوبة . ومع ذلك , فان الهدف من هذا اللقاء الاول ليس مجرد اجراء مقابلة تمهيدية للحصول على البيانات , اذ ان هذا اللقاء يمثابة فرصة لتعزيز الزمالة بين الباحث والمبحوث وللاشتراك في نوع من المكاشفة المتبادلة بينهما .

ورغم اننا ناقشنا موضوع الالفة والتبادلية بوصفهما امرا جوهريا ذا اهمية حاسمة في استعمال كافة طرق البث الكيفية التفاعلية , فقد تزداد هاتان المسالتان وضوحا في موقف التاريخ الشفاهي , خاصة بالنسبة للباحثين الذين ينظرون الى هذه العملية نظرة كلية . وسبب ذلك انك – كباحث – لا تقتصر على سؤال المشاركين لك في بحثك ( المبحوثين ) ان يسمحوا لك بملاحظة ما يصدر عنهم بصورة طبيعية من سلوك بعيدا عن عملية البحث ( كما يحدث في البحث الميداني ) . وبالمثل , فانك لا تطرح مجموعة من الاسئلة عن موضوع محدد بوضوح ( كما يحدث في حالة المقابلة المتعمقة والمقابلة مع جماعة المناقشة المركزة ) . وعندما تطلب من امرئ ما ان يشارك في مشروع تاريخ شفاهي فانك تطلب من هذا الشخص ان يحكى قصة حياته وتشاركه - من خلال الكلمات – مشاركة على مستوى عميق . واعتمادا على طبيعة هذا المشروع قد تقوم بسؤاله , ان يعود الى الاوقات العصيبة في حياته , بدون اي ضمان انه بمجرد ان تنبه ذاكرته فانه سيكون قادرا على ايقاف تدفق تلك الذاكرة عندما تريد ذلك . وبالمثل , فقد لا يكون لديك فكرة عن الاتجاهات التي سوف تسيرفيها القصة التي يرويها هذا الشخص بمجرد ان يبدا السرد . وهكذا , فانه ليس بمقدورك ان تحدد مسبقا سائر المواضيع التي ستتم تغطيتها – فانك ببساطة لا تكون على علم بها حتى هذا الوقت . لذلك تكون الالفة امرا جوهريا في عملية التاريخ الشفاهي لان المبحوث الذي تجرى معه المقابلة يضع في الباحث قدرا كبيرا من الثقة ويجعل نفسه عرضة لطائفة من الانفعالات , والمشاعر, والافكار التي قد تمتد لتشمل ما يكون منها ايجابيا وسارا جدا الى ما هو عصيب واليم . وعندما يتم توطيد قاعدة الثقة يمكن للعملية التعاونية للتاريخ الشفاهي ان تمضى قدما , كما ان الشخص المبحوث سوف يعرف ان الباحث موجود معه في هذا المكان في الواقع للقيام بهذه المهمة .

سؤال: - من هو الباحث الذي يستطيع ان يقوم بادخال الطبيعة التعاونية لعملية التاريخ الشفاهي؟

ومن الذي يستطيع القيام باجراء المقابلة ؟

الجواب: - كما هو الحال مع كافة اشكال البحث التفاعلي , تمثل قضايا الاختلاف جزءا لا يتجزا من عملية البحث . واذا كان الامر كذلك فالى اي مدى يمكن للباحث والراوي ان يختلف الواحد منهما عن الاخر ؟ من ذلك مثلا ان بعض الباحثين يرى انه نظرا لانه لدى الجماعات المختلفة داخل النظام الاجتماعي خبرات معينة وطرق معينة للتعبير عن هذه الخبرات , فان "التشابه" يكون متمما للمقابلة الناجحة للتاريخ الشفاهي . ويبين مينستر 1991 ان النساء يتحاورن بشكل مختلف عن الرجال , وان بعض النساء اذا لم يتلقين – في مقابل حديثهن – حوارا مشجعا على الاستمرار فقد يلذن بالصمت . وعلى هذا فانه يتعين ان تجرى النساء ( من الباحثات ) المقابلات مع النساء المبحوثات , لانهن يتشاركن معا في نوع ما من الثقافة الفرعية والفهم الخاصين بالتواصل الاجتماعي في مجال الحديث مع غيرهن من النساء . ويقوم باحثون اخرون – وبشكل فعال – بدمج موضوع الاختلاف في بحوثهم , الا انهم يمارسون عملية التامل النقدى ( الانعكاسية ) طوال المشروع من اجل ان يتفادوا الادعاء بان لهم حق التسلط على الاخر . مثال ذلك , ان سباركس 1994 قام بتنفيذ مشروع تاريخ شفاهي مع امراة سحاقية على الرغم من انه يختلف عنها من حيث النوع الاجتماعي ومن حيث التوجه الجنسي . وعلى ذلك , فهو لم يكن يشترك مع مبحوثته في الاحساس بالقهر ( وباشكال القهر المتعددة ) التي شكلت حياتها . وكجزء من ممارسة للتامل النقدي كتب سباركس عن احساسه باجراء المقابلة مع انسانة لا تشاركه فيما يتمتع به من امتيازات اجتماعية لم يسع الى اكتسابها . ومن خلال ادخاله لهذا الاختلاف في الاعتبار داخل العمل البحثي كله , ثم فيما بعد عند كتابته تقرير البحث , يوضح سباركس ان الامتياز الاجتماعي الذي قد يتمتع به الباحث يمكن الانتفاع به في المساعدة على اعطاء فرصة التعبير عن النفس لهؤلاء الاشخاص الذين جرت العادة على كتم اصواتهم داخل هذه الثقافة .

ويدور في الوسط الاكاديمي جدل كبير حول من هو الذي يمكنه ان يكون عارفا , ومن يستطيع ان يفهم كلمات الاخر , وما الى ذلك من القضايا. والامر الاساسي في هذه النقطة , ان هذه خيارات شخصية يتوجب على الباحث ان يبت فيها . وعندما تمعن التفكير في بعض هذه القضايا وانت تختار موضوع مقابلتك وتصمم مشروع بحثك , سيتوجب عليك ان تدخل في اعتبارك ما تؤمن به من اعتقادات ابستمولوجية تتصل بالعلاقة بين الباحث والمبحوث . وعندما تقوم بصياغة تقرير بحثك في النهاية , سوف تحتاج الى اعمال فكرك في مدى قدرتك على سيطرتك ( اوممارسة تاثير قوى ) على قصة حياة الاخر. خاصة اذا كنت لا تشاركه في وضع اجتماعي مهم ( كالاحساس بالقهر الناجم عن اعتبارات الانتماء العرقي , او الانتماء الاثني , او الطبقة الاجتماعية , او النوع الاجتماعي , او التوجه الجنسي ) .